

مكانة حنا بطاطو في الفكر العالمي

شيلي ملأط

آخر) لا يمكنها مضاهاة كتاب بطاطو كما أو نوعاً، بل أن المسامحة التي جاءت في "الطبقات الاجتماعية القديمة" لا تجد مثلاً لها يمكن الرجوع إليه في مؤلفات المؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة الغربيين الذين انكبوا على دراسة مجتمعاتهم ودولهم الغربية أنفسهم.

قد يبدو هذا الطرح مبالغاً فيه، - وشهادة من تظاهر مع حنا بطاطو ضد الغزو الاسرائيلي على رصيف البيت الابيض بعد مجازر صبرا وشاتيلا قد تكون مجروحة بتماهيها مع كل من رافق عملاقاً متواضعاً لم يتأخر يوماً عن مردييه في اسداء النصيحة وتوسيع الافاق - الا ان حجة قصور العلماء الغربيين الكبار في تناولهم تاريخ بلادهم في القرن العشرين عن مكانة حنا بطاطو من تاريخ العراق، هي حجة قوامها الاقتناع الراسخ بأن تألق حنا بطاطو فريد عالمياً على اطلاقه.

وقد نما هذا الاقتناع العلمي وترسخ في البحث المتواصل على امتداد ربع قرن عن كتب في الغرب بمستوى كتاب بطاطو، وهذا البحث لم ينجح بعد في الاستمهاء في المكتبة الغربية المختصة بتاريخ اي دولة في القرن العشرين، الى دراسة تضاهي "الطبقات الاجتماعية القديمة" كما ونوعاً.

ومهما تكن اهمية المؤرخين العظام امثال فرنان بروديل في فرنسا او اريك هوبسباوم في بريطانيا، فان المكتبة الغربية لا تزال تفتقد صنواً لحنا بطاطو يرسم لها تفاعل الطبقات والحركات السياسية والاقتصاد في الولايات المتحدة او فرنسا او بريطانيا القرن العشرين، باشتراك النفس الملحمي والدقة الموهوسة اللذين يجدهما القارئ في كتاب بطاطو الشهير. وانا كان لا بد لاي مقارنة في هذا المجال من ان تستمر عاجزة عن البرهان الحاسم، يبقى ان هذا الاقتناع راسخ لان كل من التمس مدخلاً علمياً وافياً الى تاريخ الولايات المتحدة المعاصر يعود الى كتاب أليكسي دي توكفيل عن "الديموقراطية في اميركا"، الصادر قبل قرنين تقريباً، لا لسبب آخر سوى ان كتاب توكفيل وحده يتناول روح اميركا المعاصرة على نمط يشفي القليل كما شفاها حنا بطاطو عند كل من التمس في "الطبقات الاجتماعية القديمة" مدخلاً علمياً وافياً الى روح العراق المعاصر.

يتمتع حنا بطاطو، شأنه شأن استاذ اكسفورد الراحل ألبرت حوراني، باجماع فريد واحترام علمي وانساني لا استثناء ولا تردد فيهما لدى زملاء الاختصاص في القرن العشرين، رغم التلاطم الفكري الذي يرافق دراسات الشرق الأوسط منذ ربع قرن بسبب الخلاف حول الاستشراق ونقاده.

وهذا الاحترام سوف يبدو جلياً في الاسابيع والاشهر المقبلة، كما كان دأبه في السنوات الماضية. وكان الباحثون والكتاب الممتعون بالمنطقة قد توجهوا مرجعية حنا بطاطو في التاريخ العربي الحديث بكتاب عن كتاب. فهذه المجموعة النقدية المنشورة عام (١٩٩١ بتحرير فرنيا ولويس، وعنوانها 1958: The Old Social Classes Revisited Iragi Revolution هي ظاهرة نادرة في الحقل العلمي، وقد شملت عدداً من الدراسات النقدية لمؤلف بطاطو العظيم عن "الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق"، والذي صدر عن جامعة برنستون عام ١٩٧٨. فكتاب بطاطو عن العراق، كما الكتاب الذي تبعة السنة الماضية عن التركيبة الاجتماعية السورية المعاصرة، يتميزان بموقع فريد في التراث العلمي عند اهل الاختصاص.

وعندنا ان دراسات حنا بطاطو، لا سيما منها السفر الضخم الذي خصه للعراق، تتمتع بمكانة في التراث العلمي تتخطى الدراسات العربية والشرق الاوسطية لما رسم الباحث الفلنسطيني الراحل فيما من منهج وتطبيق ليسا فريدين في هذه المنطقة وحسب، بل هما متميزان أيضاً في فضاء الدراسات التي تتناول مصر دولة ومجتمعها على امتداد القرن العشرين - أياً كانت هذه الدولة - عن اي مؤلف مماثل عن دولة غريبة، من حيث دقة المعلومات، وسعة الاطلاع، وعمق التحصي العلمي، وترتيب الاولويات في البحث والسرد. الحجة هنا ليست فقط ان مؤلفات المؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة الذين تناولوا دراسة العراق المعاصر (او اي بلد عربي

محام لبناني واستاذ القانون الاوروبي في الجامعة اليسوعية ومدير معهد دراسات الوحدة الاوروبية فيما، كتابه الاخير عن "الديموقراطية في اميركا في نفايات القرن العشرين" قيد التحرير